المحاضرة الرابعة

الدولة الأموية (عصر الخلافة)

(316– 322هـ)

تبدأ إرهاصات هذه الفترة بتولي **عبد الرحمن الناصر(300– 350هـ)** حكم البلاد الذي كان عليه أن ينهض بمهمة ثقيلة، حيث تعرضت الإمارة للثورات من كل ناحية، فبدأ بقيادة القوات والقضاء على الثائرين الواحد تلو الآخر حتى ضيق على ابن حفصون فاضطر لطلب الأمان فوافقه الأمير على ذلك، وفى شهر (ربيع الأول سنة 306هـ) مات «عمر بن حفصون» عن عمر يناهز اثنين وسبعين عامًا بعد أن قاد أكبر ثورة قام بها المولدون ضد الإدارة الأموية في غرب الأندلس كله، وتنفست الحكومة الأموية بوفاته الصعداء بعد أن كان شاغلها الشاغل طوال ثلاثين عامًا، وبحلول سنة 317هـ استطاع الناصر لدين الله القضاء على آخر الثورات التي استنزفت مجهود الدولة لسنوات طويلة.

تعرضت الحدود الشمالية لقرطبة لأخطار جسيمة من طرف النصارى قبل أن يتولى عبد الرحمن الناصر، وكان الناصر يؤثر في أول الأمر غض الطرف عن محاربتهم إلى أن يتمكن من تطهير الأندلس من الثائرين، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبهم جعل الناصر يتخلى عن أسلوبه الأول، فبعث بالجيوش وقاد بنفسه الحملات التي ألحقت بهم الخسائر الفادحة حتى كسر شوكتهم واسترد العديد من المدن والحصون والقلاع وأجبرهم على الولاء له.

عندما تولى عبد الرحمن الناصر، كانت الدولة الفاطمية قد قامت في بلاد المغرب منذ أربع سنوات في (296هـ)، وامتد نفوذها بسرعة حتى وصل إلى سبتة، وأصبحت تهدد الشواطئ الأندلسية وتمثل خطرًا دينيا وسياسيا عليها، ومن الطبيعي أن يزعج هذا الأمر الأمويين في الأندلس؛ لأن المغرب قاعدة من يريد الوصول إلى الأندلس. كما أنه يمد الثوار بها بحاجاتهم ويشجعهم على التآمر ضد الإدارة الأموية.

كان على الناصر أن يواجه هذه المشكلة قبل أن يستفحل خطرها. ولهذا بعث سنة (319هـ) أسطولا مكونًا من (120) سفينة وسبعة آلاف رجل إلى سبتة انضم إليه بعض المتطوعة في الطريق، وقد تمكن هذا الأسطول من السيطرة على سبتة، ثم حاصر الأسطول بعد ذلك طنجة وضيق عليها حتى استسلمت وخضعت للناصر وغادرها بقية الأدارسة، وبادر زعماء البربر إلى إعلان الطاعة للناصر وامتدت دعوته حتى فاس.

عبد الرحمن الناصر يُعلن نفسه خليفة:

عندما تولى عبد الرحمن الداخل أمر بعدم الدعاء لبنى العباس ولم يتخذ لقب الخلافة مكتفيًا بالإمارة، وسار بنوه على نهجه، فلما تولى الناصر، وجد أن هناك دولة فاطمية قامت في بلاد الشمال الإفريقي، ووصل نفوذها إلى شواطئ المغرب الأقصى، وقد اتخذ حكامها لأنفسهم لقب الخلافة وسماتها، إلى جانب ما يشكلونه من خطر شيعي على المنطقة، كما أن خلافة بني العباس دخلت أطوار الضعف والانحطاط من سيطرة جنود الترك والديلم، وإذا كان هو قد نهض بالدولة ووطد سلطان بني أمية في كل الأندلس فلماذا لا يكون من حقه لقب خليفة ؟ لذلك وبعد استشارة بعض الفقهاء أصدر أمرًا بذلك يوم الجمعة مستهل (ذي الحجة سنة 316هـ) وأصبح عبد الرحمن الثالث يلقب بالخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وقد أرسلت نسخ من هذا الإعلان إلى إفريقية والمغرب، وبذلك أصبحت الخلافة الأموية مساوية للخلافة العباسية، ويناط بها رعاية شؤون المسلمين. فنجح في تحويل ملوك إسبانيا النصرانية إلى أتباع له أو حلفاء.

كما أنشأ مدينة الزهراء وزاد المسجد الجامع بقرطبة، كما اهتم الناصر بالجيش وجمع له الجند من أنحاء المغرب والأندلس، واستكثر من الأسلحة، وأمده بمجموعة من أمهر القادة،وتولى القيادة بنفسه أحيانًا. كما أمر الناصر باتخاذ دار للسكة في قرطبة سنة (316هـ) لضرب الدنانير والدراهم. توفي عبد الرحمن الناصر سنة 350هـ بعد حكم دام خمسون سنة استطاع إعادة بناء الأندلس والوصول بها إلى مراتب الدول الكبرى عالميا في ذلك العصر.

الحكم المستنصر بالله (350 – 362هـ).

خلف عبد الرحمن الناصر أكبر أولاده الحكم المستنصر بالله، الذي بويع يوم وفاة أبيه في الثالث من رمضان سنة 350هـ وهو في السادسة والأربعين من عمره، فبعد أن رتب أمور الدولة وواجه الأخطار الداخلية والخارجية بحزم، ووجه أكبر اهتمامه إلى الآداب والعلوم، فازدهرت في عصره حتى وصلت الأندلس إلى قمة تطورها، فاجتمع له في خزانته أكثر من أربعمائة ألف مجلدا تتعلق بمختلف أنواع العلوم في عصره، كما احتضن العلماء وأغدق عليهم وقربهم حتى نالوا حظوة كبيرة عنده.

شعر الحكم المستنصر في أواخر عهده بالضعف والمرض، فأوصى لابنه هشام بولاية العهد من بعده وهو لم يبلغ العاشرة من عمره بعد، وقد أخذ له البيعة قبل وفاته، فلما انتقل إلى جوار ربه نفذت رغبته وأصبح ابنه الصغير خليفة للمسلمين في الأندلس.

إلا أن الخليفة المؤيد بالله ونظرا لصغر سنه، شكل مجلسا للوصاية عليه، وهذا لتسيير شؤون الدولة، بما مهد الطريق لبروز شخصية قحطانية قوية وفريدة من نوعها، لكن من خارج البيت الأموي، وهي شخصية محمد بن أبي عامر، الذي استطاع بدهائه السيطرة على أمور الحكم بعد أن قام بإقصاء كل المنافسين والمناوئين له، فتخلص في البداية من سيطرة الصقالبة، ثم من الحاجب بن عثمان المصحفي، وكذا من القائد غالب (قائد الجيش)، وبعد ذلك أبعد السيدة صبح أم هشام المؤيد بالله، فخلا له الجو بذلك للانفراد بالملك، فتغلب على الخليفة هشام المؤيد وحجره في قصره، لا تراه الخواص ولا العوام، ثم تسمى بالحاجب المنصور سنة 371هـ، كما أمر بالدعاء له على المنابر بعد الخليفة. هذا الوضع، جعل السلطة الزمنية تخرج عن سيطرة الخليفة والأمويين بشكل عام، فلم تبق لهم إلا السلطة الروحية من الدعاء على المنابر وكتابة اسم الخليفة على السكة والطرز لتبدأ مرحلة الدولة العامرية التي نشأت في قلب الدولة الأموية وفي عز قوتها.

وهكذا نجح ابن أبي عامر في السيطرة على مقاليد الأمور، وأعاد للأندلس الإسلامية هيبتها؛ إذ قام بست وخمسين غزوة ضد الممالك المسيحية بالشمال "لم تنكس له فيها راية ولا فل له جيش"

كما يقول المقري، ومن الناحية الثقافية كان بلاطه في المدينة الزاهرة ملتقى للكثير من العلماء وشعراء المديح الذين أرخوا لحكمه، ثم خلفه ابنه عبد الملك المظفر (392- 399هـ/ 1002-1009م)، فسار في الحجابة سيرة أبيه بصفة عامة.

ولما مات المظفر خلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول، وكان دون أبيه وأخيه كفاية؛ حيث طمع فيما بقي للخليفة الأموي من السلطة الروحية. هذا الأمر الخطير ترك الأمويين يثورون ضدّه ويقتلونه بعد أن ولوا أمرهم رجلا من أحفاد الناصر وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي بالله فأساء للبربر، وبسبب هذه السياسة اشتعلت حرب أهلية بقرطبة دامت ثلاثة وعشرين عاما (399-422 هـ/ 1009-1031م) تصارعت فيها العناصر المختلفة في المجتمع الأندلسي كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة، وخربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة واستعان بعضهم بالنصارى على بعض، فمرت على قرطبة سنوات دامية؛ عطلت فيها بعض المساجد وهدمت فيها دور العلم التي أنشأها المستنصر، وقتل عدد كبير من مدرسيها، وبيعت كتبه التي جمعها بأبخس الأثمان. وراح ضحيتها الكثير من العلماء، وترك أكثرهم قرطبة إلى مدن الأندلس الأخرى، ومنهم من خرج إلى أقطار إسلامية أخرى كمصر وغيرها، والذي لم يغادرها لزم الصمت خوفا من الفتنة أو أصابته نوبة من الاكتئاب من هول ما جرى كما حدث للمؤرخ ابن حيان (ت 469 هـ/ 1076م) الذي منعته تلك الأحداث من متابعة مجريات هذه الصراعات لكنه بعد وقت غير طويل أمسك بالقلم ثانية ليكتب- نزولا على الأمر الواقع- تاريخ تلك الوقائع: "وأنسأتني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة المفرقة للجماعة الهادمة للمملكة المؤثرة المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية ففاضت أهوالها تعاظما أولهني عن تقييدها، وأوهمني أن لا مخلص منها فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها".

وهكذا عاشت الأندلس الإسلامية في الفوضى وعدم الاستقرار، حيث تولى الحكم في هذه الفترة عشرة حكام، منهم أربعة تولوا الحكم مرتين وبعض هؤلاء الحكام من الأمويين، وبعضهم من بني حمود، وكان كلما تسمى أحد بالخلافة فيكون مصيره القتل، أو العزل أو السجن.

ولما بلغت هذه الاضطرابات أوجها وعمت الفوضى جميع جوانب الحياة في قرطبة فلم تتحمل المكونات الاجتماعية ذلك فهتفت بإسقاط الخلافة عن الأمويين وتم ذلك سنة 422هـ/ 1031م، وإخراج من تبقى من بني أمية في قرطبة، ثم أعلن الوزير أبو الحزم محمد بن جهور انتهاء رسم الخلافة

لعدم وجود من يصلح لها، وأسند الأمر إليه باعتباره شيخ الجماعة، "فلما اتصل الخبر بأمراء البلاد ثار كل منهم في بلده بمن عنده من الأجناد"، وتفتت الأندلس بين عائلات عسكرية متنازعة، وأستقل كل أمير بناحيته، وتسمى كل واحد منهم بما يحلو له من ألقاب الخلافة.

وهكذا دخلت الأندلس في عهد جديد عُرف أصحابه بملوك الطوائف أو عصر الفرق كما يسميه ابن الكردبوس. منقسمة إلى أكثر من عشرين أسرة حاكمة منضوية تحت لواء ثلاثة تجمعات كبيرة يطمح كل منها في بسط سلطانه على الأندلس.